

فصل لمرآة العبور

شعر: محمد الفهد

كيفَ لي أن أحضن الأزرقَ في قلبي
وهذي الأرضُ أمواجَ من الطين
ركامَ من حطامِ
قد تعرّت في الجهات
كيفَ لي أن أعبرَ الدربَ ظللاً
أن أنقي ما بصدري من هواءٍ مفعمٍ
بالقتل بالقهر
وماشكّله الليلُ على جرح السهول
كيفَ لي أن أصرخَ الآنَ على هذي
الطلول
صوتها خلفي وخلفي ظلها
سحراً، مواويلاً، عذاباً
وأنا حجره عشق قد تداعى
قلبها قبل الوصول
كيفَ لي أن أنشرَ المسكونَ في قلبي
وقد ذابت مفاتيحُ المدينة
صيرت كالبلور مجروح الشظايا
والأماسي دمعاً فوق الذهول
كيفَ لي أن أرتمي فوق جراحي
كي أقول:
طعمُ أنثاي الحنينُ المشتهى
والصدرُ بعضُ الصدرِ ميناء الحكايا
ورياحُ الضمِّ
آه، حجره فوق الحلول
آه لو تدرين يا أنثاي
كيفَ الآنَ مازلتُ صبيهاً
يرشفُ الروحَ، يماشي عطرها
فوق المرايا
كيفَ يمشي نخلها في

في طريقي نحوَ بابِ النهرِ والمنفى
وماصبتُ سماءَ فوقَ رأسي
كنتُ أدري أنني أمشي إلى
مايشبه الموت
فهذا الخوفُ مزروعٌ على أسمائنا صباحاً.
وهذا الصلبُ مغروسٌ على كفِّ الأماسي
أو نهاياتِ القدمِ
في طريقي كانتَ المرأةُ ليلاً من عويلٍ
فوقَ خيلٍ من فعولٍ
ترتدي فصلَ المدى وجهاً ظللاً
ثم ترمينا قبوراً أو رحيلاً
كنتُ فيها موجةً أو رحلةً
والظلُّ موالٍ العدمِ
في طريقي دسّت الأحلامُ موالَ التمني
قلتُ يكفيني من الأحلامِ ليلي
ومراثينا، وما كان زماناً فوقَ روعي
كي يُواخينا الندمُ
في طريقي دارتُ الأسماءُ حولي
والمرايا كسّفتُ جرحَ المنافي
كيفَ لي أن أرتمي هذا الغناءَ المشتهى
أن أحجبَ الواقفَ فوقَ الرأسِ
كي تسري على صدري عيونٌ
وتهجيني لغاتٌ
ولماذا كلُّما جنّتُ عيوناً
سدّ دربي ورماني فوقَ أرضِ
لم تنزلُ تحضنُ دمعاً
أو مرايا جمعتُ أسماءها
فوقَ سهيلِ الذكرياتِ

ويشردُ الآنَ على جرح السكينة
 كيفَ أحمي حجرة القلبِ سواراً
 والهدايا حبلُ موتٍ يتدلى
 والمسافاتُ بوارٍ
 كلما قلتُ لوجد القلبُ
 هذي شفرة الأنتى
 الأمانى ضحكتُ،
 إذ رشتُ في صمتها من أسفل الإبطِ
 سهولٌ
 كي أنادي امرأةً تغفو على ليل القصيدة
 ثم تمشي في دمي ورداً
 يخافُ الموتُ من حرِّ اللهبِ المرِّ
 أو ما جرحَ اليومَ السفينةُ
 كيف لي أن أستهي ما يشتهي
 والأرضُ تندي في جراحي دمة
 تهذي على مدِّ الوصايا
 ثم يرميها الجوابُ
 كيف لي، والرومُ يرتاحون فوق الأرضِ
 مشواراً علينا
 لم أكنُ أعرفُ قبلَ الآنَ، ماسرُ اغترابِ
 الأرضِ
 حينَ الريحُ ترمي عطرها بعدَ المطرِ
 لم أكنُ أشتمُّ سرَّ الحرفِ
 يومَ راحتِ الأنهارُ تستبكي على ظلِّ القمرِ
 كيفَ لي
 والأرضُ قد مالتُ إلينا
 ترتدي جمرَ العذابِ
 فشمالُ العينِ مكسورٌ
 وهذا الآخرُ المزروع في قلبي
 على جرح البكاءِ المرِّ
 أو نوح الكتابِ
 والجنوبُ المرتدي ظهرَ الخيولِ
 يهتدي بالدمع حيناً
 ثم حيناً
 يذكرُ الريحَ وأحلامَ الفصولِ
 كي يقولُ:
 كيفَ لي أن أستهي فصلَ القبولِ

وكيفَ الروحُ تسري فوقها
 روحاً، وتقاحاً
 ثماراً أو مسافاتِ احتمالٍ
 أه لو تدرينَ ما سرُّ احتراقي
 حينَ أمشي في غيومِ الشوقِ طيراً
 فوق ظلي
 حينَ تنأى بي عيونُ
 والمدى جرحُ السؤالِ
 أه لو تدرينَ ما سرُّ اغترابي
 بين روجي والبلدِ
 لاهتدتُ فينا المنافي وانفتحي
 حزنَ الجسدِ
 ربما ندركُ هذا الخيطُ حينَ القبلةِ الأولى
 تجاري شوقنا نحوَ الأبدِ
 نتلاقى شاطئاً يرتاحُ في لَمِّ المنافي
 أو شراعاً أغلقتُ فيه المرافي نومها
 ثم غطاها صراخُ
 كقطاراتٍ تمدُّ الدربَ قربَ الجرفِ
 أو موالٍ ليلٍ قد تناسى كلُّ جرحِ
 ثم غطاها الزبدُ
 ربماندركُ هذا الخيطُ في مشوارِ خمرِ
 أو خبوطاً تنشدُ الشعرَ
 وتنسى ذلكَ الواقفَ فوقَ البابِ
 أو قدامه
 أو في مداراتِ العددِ
 كي تقولَ المشتهى
 أو ما تنامى من غريبِ
 لا يرى غيرَ حريقِ
 لم يكنُ من صورةِ الرحمن فيه
 غيرُ دمعٍ وصدورِ عاريةِ
 هاهو الوقتُ يماشي ظلُّنا في آخرِ الحزنِ
 المسمى ثورةً
 أو رجعةً
 أو شرفة ماتتْ على نوحِ القصيدةِ
 والمرايا حجرةً في خابيه
 هاهو الوقتُ المسمى دورةً في سفرنا
 أو فوقَ ميزانِ المدينةِ

في طريقي نحوَ بابِ النهرِ والمنفى
رأيتُ الأرضَ تُهدي لوعةَ الآهاتِ
في جرحِ المدى
لوعةَ التيهِ على فصلِ الضبابِ
وتقول:
أينَ فجرٌ كانَ موعوداً بنا
منذُ ارتحالِ المدِّ في أضلاعنا
حتى الغيابِ

أينَ أنتمُ
هاهوَ العمرُ خريفٌ
والمرايا جمرَةٌ يفتاتها هذا الغيابُ
كيفَ لي أنَ ارتدي سحرَ الربيعِ المنتظرُ
حكمةَ الربِّ الكبيرةَ
وأنا بينَ التماهي تهتدي روجي
فأسعى فوقَ هذي الغربةَ العمياءِ
في دمعِ النخيلِ أو بطاقاتِ السفرِ
كيفَ لي أنَ أوضحَ اليومَ عبوري
والمنافي كلها أرضٌ تشمُّ الدمعَ
من قمصانِ جرحي في المرايا
كعبورِ الريحِ في ليلِ المطرِ
كيفَ لي أنَ أخرجَ الآنَ
أماشِي فرحَ اللوزِ وأوراقَ السورِ
كيفَ لي أنَ أدفنَ الماضي
وهذا الأفقُ مكسورُ المدى
فيينا على مدِّ النظرِ
وأنا دربِ تنامي
فوقَ ميناءِ الطفولةِ
كي يسميني السفرُ
كيفَ لي أنَ أعلنَ الحبَّ سماءً
وأنا من مولدِ الفخارِ
حتى صرخةِ الآهِ الأخيرةِ
لأرى غيرَ التعري في دمي.
لأرى غيرَ المنافي

خائفاً في كلِّ دربٍ أو زمانٍ
لأرى غيرَ ارتحالِ بينِ فأسٍ
في شمالٍ أو جنوبٍ
وإذا قلتُ بأنَّ الأرضَ لي
أو تنامتُ فوقَ روجي
كسرتُ كلُّ سماءٍ ليلها في جرحنا
ثم تراختُ في القلوبِ
وإذا ناديتُ باسمِ الحبِّ كي أمشي
إلى روجي
على أرضِ تناديني
رمانِي حارسُ البابِ بحجرٍ
لم أعدُ أسألُ في وهجِ حريقِ الحلمِ
عن ظلِّ ينادي لوعةَ
أو جمرَةً أو نشوةَ
لم أعدُ أسألُ جرحي ما تناديه القلوبُ
هاهو الباقي بقايا من حكايا
باعدتُ منها الدروبِ
فتعالِي نكتبُ الآهَ زماناً
وتعالِي ننشدُ الروحَ جمالاً
أو كشوفاً تسنُدُ الضلعَ
وتهديني القصبُ
وتعالِي نقرأ الكونَ جمالاً
إنَّه الحبُّ الذي يُبصرُ مدَّ الريحِ والمعنى
ويحمي بحرنا المجهولَ من أهِ السغبِ...
وتعالِي للفناءِ المشتهي
بعدَ الغيابِ المرِّ فينا
كي نلاقي روجنا فوقَ الطربِ
وتعالِي نشردُ الآنَ كغيمٍ
قد تناسى مدنَ العصرِ
ويأسَ العصرِ
نبني فرحَ الآتي
على جمرِ التعبِ

